هذه قصتي و أريد العدالة

بقلم : سمورة (اسم وهمي)

تحذير: تحتوي هذه القصة على تفاصيل عن التعذيب

أنا من حلب، عشتُ قسماً من طفولتي في بلدة أخترين بريف حلب. نحن من بيئة محافظة، وأبي شديد التزمت والقسوة، فلم يسمح لي بمواصلة دراستي بعد الصف السادس. أمي حنونة تحبني وأحبها كثيراً، كذلك هم أخواتي وأخي الصغير. أما أبي فأكرهه، ولا أخجل من الاعتراف بذلك. كنتُ مجتهدة في دروسي وأحب المدرسة، قبلتُ قدميه كي يسمح لي بمواصلة دراستي، لكنه ظل مصراً على موقفه، لا يعترف بحقي في الخروج من البيت.

بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمري، تعرفتُ على شخص، لمستُ منه حناناً واهتماماً ودلالاً، وكان يقدم لي هدايا. حين اكتشف أبي هذه العلاقة عاقبني بقسوة، ضربني وشتمني وصرخ عليّ، ثم حبسني في غرفة مع حرمان من الطعام لمدة أسبوعين، وبعد أسبوع في الغرفة، انتقل حبسي إلى الحمام ثم إلى مستودع صغير. كانت أمي تطعمني خلسةً في غيابه، وتخرجني من حبسي أحياناً، فيقوم بتغيير المكان حالما يكتشف ذلك.

لم تنته عقوبة الحبس إلا حين جاء شخص وطلب يدي بصورة رسمية، فوافق أبي على زواجي على رغم أن فارق العمر بيننا ثلاثة عشر عاماً، وكان عمري حين تزوجت أربعة عشر عاماً، وهكذا اصطحبني زوجي إلى حلب حيث يعيش، وأنا طفلة لا أعرف معنى الزواج ومسؤولياته.

لم يتغير عليّ شيء تقريباً، فقد انتقلت من تحت ظلم أبي إلى ظلم زوجي، فهو شخص قاسٍ عشت معه حياة صعبة جداً مملوءة بالمشاكل والمشاجرات. ولم تمض إلا عشرة أشهر حتى أنجبت طفلي الأول، وحين بلغت التاسعة عشرة كان عندي أربعة أطفال. ولم يكن لديّ خيار الانفصال عنه، فقد هددني أبي بالقتل إذا فعلتُ، وكذلك بالحرمان من أطفالي.

في أواخر العام 2010 توفي زوجي في حادث سير، فبقيت وحدي مسؤولة عن أربعة أطفال، فأهلي بعيدين عني وأخواتي متزوجات كل واحدة في مكان مختلف، وتخلى عني أهل زوجي لأنني، في رأيهم، أتحمل مسؤولية وفاة زوجي بسبب دعواتي عليه. الواقع أنني كنت أدعي عليه فعلاً لأنني لم أكن أحبه، فلم أر منه غير القسوة والصراخ والشتائم. في غضون ذلك أصيبت إحدى بناتي بشلل دماغي، الأمر الذي زاد من عبء مسؤولياتي تجاه أطفالي.

بعد نحو ثلاثة أشهر من وفاة زوجي بدأت المظاهرات في حلب، وبعد عام إضافي دخل الجيش الحر إلى منطقة الحيدرية حيث بيتي. وبدأ قصف الطيران، فغادر سكان الحي وبقيت متروكة لمصيري مع أطفالي. حتى أختي التي كان بيتها في الحي نفسه غادرت وعائلتها ولم تدعوني لمرافقتهم. وكذلك فعلت حماتي. جميعهم معهم سيارات ولم يدعوني أحد منهم لمرافقتهم في النزوح. أطفالي لا يعرفون أعمامهم وعماتهم، أصبحوا كالمقطوعين من شجرة..

بقينا أسبوعاً تحت القصف، فلم يبق لدينا طعام أو ماء، وأطفالي يصرخون مرعوبين كلما سمعوا صوت طائرة. انسحب النظام من الحي فور دخول الجيش الحر، ولم يتوقف القصف بعد ذلك، فلم يكن بوسعنا أن ننام. ثلاث سنوات على هذه الحالة، ولم يسأل عني أحد أو يبدي اهتماماً. ثم بدأ بعض أهالي الحي يعودون إلى بيوتهم، ثم ينزحون من جديد كلما اشتد القصف.

كانت فترة في منتهى الصعوبة، عشناها بين خوف وجوع، لكن الرعب الأقصى عشناه حين سقطت قذيفة على بيتنا، ليس هناك كلمات قادرة على وصف حالة الرعب التي عشناها في تلك اللحظات. تهدم نصف البيت، تكورنا معاً في إحدى الزوايا، وأصيب ابني إصابة طفيفة في رأسه ويده. أصعب ما في الأمر أنني لا أملك أي حل لهذا الوضع، ولا ثقة لي بأحد لأحتمي به. كنت أتجرأ أحياناً وأتوسل إلى مقاتلي الجيش الحر أطلبهم خبزاً وماءً، فمنهم من استجابوا، ومنهم من قالوا إنهم لا يستطيعون أن يعطوني شيئاً. لقد عشنا ذل الجوع إلى درجة أنني كنت أطعم ابنتي الرضيعة الخبز والشاي كأخوتها، لأنني لا أملك الحليب ولا نقوداً لشرائه.

كانت الكهرباء مقطوعة بصورة دائمة، وفي إحدى الليالي أشعلتُ شمعة كي لا يخاف أطفالي من الظلام قبل النوم. لا أعرف كيف غفوت، فتحت عينيّ على إضاءة فظننت أن الكهرباء قد عادت، وبين غمضة عين وتفتيح، رأيت النار! البيت يحترق، أولادي يختنقون، الملابس، الأدراج، التلفزيون، كل شيء يحترق، ابنتي المريضة تختنق، أصرخ وأصرخ طلباً للنجدة ولا أحد في الحارة كلّها. وبدأت بإطفاء الحريق بعد إنقاذ بناتي الثلاث وإخراجهن إلى الشارع، ولا من مساعد سوى ابني الذي يبلغ السادسة من عمره. لم يكن عندي حتّى هاتف للتواصل مع أحد أو الاطمئنان على أمي وإخوتي.

ثم جاء الفرج حين فوجئت بمجيء أبي الذي اصطحبنا إلى بيته في أخترين. وفسر لي سبب تأخره في المجيء بأن النظام قد منع الدخول إلى حلب طوال تلك الأشهر

العصيبة. لم يكن بمقدور أبي تأمين حليب للصغيرة من النوع الذي أوصى به الطبيب، فأطعمناها حليباً بقرياً ولبناً، فازدادت حالتها سوءاً، مما اضطرنا لإجراء عملية جراحية لها تم فيها قطع قسم من أمعائها المتيبسة. ما أقسى تلك اللحظة حين أراني الطبيب أمعاء رضيعتي.

لم يمانع أبي بسفري إلى تركيا، وهدفي منه إنقاذ أطفالي من حياة الجحيم التي يعيشونها، وتأسيس حياة جديدة أعمل فيها وأصرف على أولادي. كانت رحلتي إلى تركيا ميسرة، جئنا إلى المنطقة الحدودية على ثلاث دراجات نارية، ودفعت للمهرب ثلاثة آلاف ليرة سورية. على الطرف الآخر من الحدود ركبنا سيارة أجرة أوصلتنا إلى مدينة مرعش بناءً على طلبي. حين وصلنا المدينة، لم تكن لدي وجهة أتوجه إليها، ولا أحداً أعرفه، فقصدتُ أحد الجوامع حيث استقبلني إمامه، وكان رجلاً طيباً استضافنا في غرفة ملحقة بالجامع، وبعد ثلاثة أيام وجد لي بيتاً استأجرته بمئة وثمانين ليرة تركية.

وجدت عملاً في محل لصناعة المسابح، فكنت أضم الحبات إلى الخيط. لن تكتمل فرحتي بالحصول على عمل، فقد تحرش بي أحد أصحاب المحل وحاول أن يعتدي علي، فتركت العمل ولم أحصل حتى على أجوري عن الأيام التي عملت فيها. عدت إلى البيت وغرقت في البكاء على حظي التعيس الذي لاحقني إلى تركيا. حين عرف جيراني الأتراك بما حدث لي تعاطفوا معي، وقالوا لي لا تعملي ونحن نتكفل باحتياجاتك. وفعلاً لم يقصروا معي في شيء. ثم وجدت عملاً لابني في ورشة خياطة، وعملت أنا في مطعم، فتكرر معي التحرش مجدداً وتركت العمل مرة أخرى. بعد مرور سنة جاءت أختي وافتتح زوجها ورشة أحذية عملنا فيها، أنا وابني، لمدة سنة ونصف، ثم تركت العمل أيضاً لننا لم نتفق على شروط العمل.

بعد ثلاث سنوات في مرعش انتقلت للعيش مع أهلي الذين دخلوا تركيا وسكنوا في مدينة قيصري، حيث عشت معهم نحو سنتين ونصف. وعاد أبي إلى التدخل في شؤوني في كل صغيرة وكبيرة. وكانت أمي تدافع عني، حتى أنها طلبت منه الطلاق بسببي. كل ذلك القهر أدى إلى وفاتها بجلطة قلبية. وحين توفت أخبرت أبي أنني لا أستطيع البقاء عنده، وغادرت إلى مدينة غازي عنتاب حيث أعيش إلى الآن. تعلمت هنا حلاقة الشعر وفتحت صالوناً للحلاقة في بيتي.

تعرفت في عنتاب إلى شخص أحببته من كل قلبي، أعزب يكبرني بعام واحد، طيب ومتدين. طلب يدي من أبي الذي اشترط موافقة أمه، وأمه رافضة لي لأنني أرملة ولدي أربعة أولاد. تكررت محاولاته وتكرر رفض أبي وأمه. فاقترحت عليه أن يتزوج امرأة أخرى كي نتساوى، ثم يتزوجني. وهذا ما حدث، فقد تزوج وأنجب ولداً من الأخرى، وإذ طلبت منه، بعد مرور عام، أن يخطبني مجدداً، بدأ يماطل ويتردد. فهددته بالزواج من رجل آخر إذا لم يتقدم هو. وبالفعل تزوجت من شخص لا أعرفه كان قد تقدم لخطبتي. فجن جنون الأول وهددنا بالقتل وسحب علينا السلاح. عرف كل الجيران، إضافة إلى أهلي وأهله بما حدث. أما الرجل الذي تزوجته فقد فضل الانسحاب وطلقني في اليوم الثاني لزواجنا. بعد انتهاء فترة العدة عاد ليخطبني من أبي الذي استمر على عناده في اشتراط موافقة أم الرجل، والأم غير موافقة! وهكذا استمرت علاقتنا بلا زواج، وبمعرفة الجميع بما في ذلك زوجته الأخرى التي وافقت على ذلك.

حياتي سلسلة طويلة من الظلم والقسوة. منذ طفولتي وأنا أتعرض للظلم من الجميع، من أبي، من زوجي الأول، من أهله الذين تخلوا عن أولاد ابنهم، من أصحاب العمل الذين لم يتركوني أعيش من عملي وأرغموني على ترك العمل، إضافة إلى ظروف الحرب ومعاناتي في بيتي في حلب تحت القصف. أعزي نفسي بالقول إن الله قد

ابتلاني بكل هذه الحياة القاسية لأنه يحبني، فهذا الابتلاء يغفر الذنوب التي قد أكون ارتكبتها يوماً ما.

طوال رحلتي القاسية في الحياة كان ابني هو سندي، لكنه تركني ورحل إلى بيت أهلي حين تزوجت وحدثت تلك المشاكل التي سبق وذكرتها. ولا تواصل بيننا. أتمنى من خلال قراءته لقصتي هنا أن ستفهمني و يعلم أنني تحملت الكثير من الظلم لأجله لأنني أحبه.

أستمد القوة والعزيمة من بناتي، فهن محترمات وطيبات. كلما نظرت إليهن شعرت بالقوة، وخاصةً الصغيرة، أشعر أن الله يمدني بالقوة من أجلهن.

كذلك شعرت بالراحة عندما تعرّفت على "مركز العائلة" وحضرت جلسات الدعم النفسي، استطعت أن أتكلم وأفرج عن نفسي وأذهب مرتاحة، خاصة وأنني لا أستطيع أن أحكي عن خصوصياتي مع المحيطين والجيران. كانت الجلسات بمثابة الدعم لي، شعرت أن هناك من يقف إلى جانبي، ازدادت قوتي ولم أعد أخشى شيئاً.

لن تتحقق العدالة إلا بوقف الظلم، إلا إذا استطعت أن أواجه الظالم وأقول له أنه ظالم. أملي أن أستطيع تدريس بناتي ليكنّ أفضل مني، وأن يكنّ قويات. لا أفكر بتزويجهن، فالزواج لا شيء، الدراسة هي كل شيء. كي لا يتعرضن لما عانيته من عذاب ومعاناة في حياتي.

وكما ظلمت، ظلم بلدي، سوريا لا تستحق ما حصل لها من دمار وخراب، سوريا تستحق الأفضل، شعب سوريا ساهم في خرابها، أتمنى أن تعود سوريا كما كانت، أن نرجع إلى بيوتنا، أن تنتهي الحرب، أن يزول الفقر، سوريا بلدنا، سوريا غصّتنا، ومهما حصل، سوريا وطننا

رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison